

## هارون الرشيد - 148 - 193 هـ -

د. عبد الرحمن دركزلي

### 1 - عصره

- يعد عصر الرشيد - بإجماع المؤرخين - العصر الذهبي للدولة الإسلامية إذ بلغت فيه الدولة أوج حضارتها، وغاية اتساعها، وأقصى قوتها، حتى إن بغداد في عصره غدت حاضرة الدنيا لكثرة قصورها وأسواقها ومساجدها .
- يقول أحد المؤرخين: " كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حسنها أعراس " .

### 2 - شخصيته

- هارون الرشيد هو الخليفة العباسي الخامس .
- عاش في القرن الهجري الثاني، توفي وعمره خمس وأربعون سنة .
- أما أبوه فهو المهدي، وأما أمه فهي الخيزران ( من سبي خرشنة ) .
- تزوج الرشيدة عدة نساء، ومن أبرزهن:
  - زبيدة ( عربية ) أنجب منها الأمين .
  - مراجل ( فارسية ) أنجب منها المأمون .
  - ماردة ( تركية ) أنجب منها المعتصم .
- تولى الخلافة مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان أخوه الهادي يحاول أن يحرمه منها، ولكن يحيى البرمكي ثناه عن ذلك .
- أما من حيث الصورة فقد كان الرشيد طويلا، أبيض اللون، ضخم الجسم
- كان يتمتع بكثير من الخلال الحميدة والسجايا النادرة كالشجاعة والكرم والتقوى والورع وحب العلم والتواضع ومجالسة الصالحين .

### نشاطه السياسي

- قضى الرشيد على ثورة الخوارج الذين تمردوا على الخلافة بزعامة الوليد ابن طريف الشاري في الجزيرة العليا، وكانوا قد عبروا دجلة ووصلوا إلى العراق، لكن الرشيد مزق شملهم وهزمهم وقتل زعيمهم، والشاري هذا هو القائل:  
أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلى بناري  
جوركم أخرجني من داري
- قضى على ثورة الديلم التي قادها يحيى بن عبد الله العلوي، وقد استخدم معهم اللين أحيانا والعنف أحيانا حتى قضى عليهم.
- قضى على ثورة خراسان، وكان أهلها قد ثاروا على واليهم (ابن ماهان) الذي عينه الرشيد عليهم، فظلمهم ونهب أموالهم، وحاول خداع الرشيد بالهدايا، لكن الرشيد علم بأمره فعزله، وبذلك أطفأ نار ثورة دامية.
- أخمذ الرشيد النزاع الذي نشب بين القيسية واليمانية، وهذا النزاع كان العباسيون قد أججوه في الشام ليشغلوا أهلها عن الثورة ضدّهم، خصوصا بعد أن تقموا عليهم إثر نقلهم الخلافة من دمشق إلى بغداد. وقد رأى الرشيد أنه من الحكمة تقوية أهل الشام بدلا من إضعافهم، لأن في إضعافهم تمكينا للروم من مهاجمة أطراف الشام.
- واستطاع الرشيد أن يفرض الجزية على الروم، ذلك أنه كان في عهد أبيه المهدي -قد غزا بلاد الروم، ووصل حدود القسطنطينية، ولم يرجع إلا بعد أن طلبت منه الإمبراطورة إيريني الهدنة وقبلت بدفع الجزية. على أن نفقور الذي تولى بعدها امتنع عن دفع الجزية إلى المسلمين، وكتب إلى الرشيد رسالة، يقول له فيها: " من نفقور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ من البيدق، وحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله إليها، ولكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيني وبينك " وعندما قرأ الرشيد الرسالة كتب له على ظهرها

- من فوره مايلي: " من هارون الرشيد إلى نقفور كلب الروم: قد قرأت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه، والسلام ". ثم إن الرشيد خرج على الفور لقتاله، واستولى على هرقلية ثم دنا من عاصمته، فاضطر نقفور إلى الإذعان ودفع الجزية.
- و من نشاطاته السياسية أيضا أنه قضى على ثورة الأدارسة في مراكش.
- ونكب البرامكة في سنة 187 هـ بعد أن اعتمد عليهم مدة 17 سنة.
- وأقام الرشيد مع شارلمان ملك الفرنجة علاقات طيبة تقوم على الود والاحترام وتبادلا الهدايا.

### نشاطه الاقتصادي

- بالرغم من كثرة الأحداث السياسية في عهده، اهتم الرشيد بالشؤون الاقتصادية للبلاد :  
فقد حاول شق ترعة تصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، لكنه عدل عن مشروعه خوفا من أن يقوم الروم باستغلالها للوصول بسفنهم إلى الأراضي المقدسة، وقد نصحه بالعدول عن شقها يحيى البرمكي.
- عني بالزراعة، فأقام السدود، وبنى القناطر، وشق السواقي.
- اهتم بالعمران، فبنى المدارس والمشافي والمساجد والمكتبات.
- كما اهتم بالصناعة، ولاسيما صناعة الورق، إذ كلف وزيره الفضل البرمكي سنة 178 هـ بإقامة أول مصنع للورق في بغداد ( زيود 119 )<sup>1</sup> واهتم أيضا بصناعة الزجاج، يشهد على هذا ذلك المصنع الذي عثرت عليه البعثة البريطانية في الرقة، إذ اكتشفت بعد خمسة مواسم للتنقيب واحدا من أعظم مصانع الزجاج في العصور القديمة، وهو مكون من أربعة أفران على شكل خلايا النحل، ( وكل فرن منه يحتوي على ثلاث غرف واحدة للوقود، وثانية لصهر الزجاج، وثالثة للتبريد البطيء ).
- واهتم الرشيد بمدينة الرقة اهتماما كبيرا، يشهد على ذلك أنه اتخذها مصيفا له، وبنى فيها:  
- قصرا فخما ما تزال أطلاله قائمة إلى يومنا.  
- ومسجدا.  
- وسجنا كبيرا.  
- ومركزا لإعداد الجيوش ( التي كانت ترسل لقتال الروم ).  
- ومصنعا للزجاج ( أشرنا إليه قبل قليل ).
- وإذا صح الخبر الذي يروى عن هدية الرشيد إلى شارلمان ملك الفرنجة فإنه يدل على ما بلغه عهد الرشيد من التقدم والرفاهية، فقد اشتملت الهدية على أقمشة حريرية فاخرة / شطرنج / فيل ضخم اسمه: أبو العباس / ساعة دقاقة ( توهموا أن فيها جنا ).

### نشاطه الثقافي

- شهد عصر الرشيد نشاطا ثقافيا متميزا، ويكفي أن نشير هنا إلى بروز علماء كبار من مثل:  
- أبي يوسف القاضي ( الذي صنف كتاب " الخراج " ).  
- الإمام مالك بن أنس.  
- الإمام الشافعي.  
- جابر بن حيان ( عالم الكيمياء الشهير ).  
- الخوارزمي ( عالم الفلك والرياضيات المعروف ).  
- الأصمعي ( اللغوي الشهير ).  
- الكسائي ( العالم بالقراءات والنحو ).  
- سيبويه ( النحو الشهير ، صاحب " الكتاب " ). ( راجع فروخ 171/2 )
- يقول الجاحظ : " اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: فوزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف رحمه الله، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد (عم أبيه)، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأعظمهم، ومغنيهم إبراهيم الموصلية ".

### 3 - القضايا البارزة في حياته

#### أ - نكبة البرامكة:

[<sup>1</sup> ] جوليان هندرسون ( من جامعة نونتنگهام )، راجع مقاله المنشور في كتاب التعاون السوري البريطاني في مجال الآثار، عدد 3، 4 أيار 1998، مكتبة الأسد، دمشق

- البرامكة أسرة مجوسية تنتمي إلى ( برمك ) سادن النار في مدينة بلخ.
- وأول من أسلم من بني برمك هو ( خالد بن برمك ) الذي أبلى بلاء حسنا في نشر الدعوة العباسية، وكان من جراء ذلك أن عينه السفاح وزيرا له.
- وفي عهد المهدي (والد الرشيد) غدا يحيى البرمكي أستاذا للرشيد ومربيا له.
- ثم إن الهادي (أخا الرشيد) فكر بخلع أخيه من ولاية العهد ليولي ابنه، ولكن يحيى البرمكي ثناه عن عزمه، لذلك قلده الرشيد الوزارة، وأطلق يده قائلا:
- " يا أبت.. أنت أجلسني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى من الصواب، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت فإني غير ناظر معك في شيء".
- ولم يكتف الرشيد بذلك بل قرب إليه أبناء يحيى الأربعة، وهم:
- الفضل ( شقيق الرشيد من الرضاعة: أرضعته الخيزران).
- جعفر ( وكان أكثر إخوته قربا من الرشيد، فهو حاجبه ونديمه )
- موسى ( وكان من أبرز قادته العسكريين ).
- محمد ( وهذا لا نعرف عنه شيئا ).
- والشيء الذي يذكر هنا أن البرامكة في عهد الرشيد تقلدوا أعلى المناصب، وحصلوا على أسنى المراتب، حتى إن الناس أخذوا يقصدونهم لحل مشكلاتهم كما كان الشعراء يمدحونهم لينالوا عطاءهم، وبلغ الأمر بجعفر البرمكي أن كان مديرا لقصر الرشيد، وكان يشركه في النظر في المظالم، وكان حامل أختامه ومديرا لدار الضرب ولديوان البريد، وكان الرشيد لا ينقض له أمرا أبرمه. وقد نعم البرامكة بهذا قرابة 17 سنة ( من سنة 170 187 هـ ).
- ثم إن الرشيد غضب عليهم، فاعتقلهم، ومزق شملهم، وأباد غضراءهم، وصادر أملاكهم وأموالهم، وطاردهم حتى استأصل شأفتهم.
- أما سبب غضب الرشيد عليهم ففيه خلاف:
- (1) فبعض المؤرخين يرى أن السبب اقتصادي، ذلك أن البرامكة بنوا القصور، وامتلكوا الضياع، وتقلبوا في النعيم، وصاروا يتحكمون في شؤون الدولة، حتى إن الخليفة نفس أخذ يحسداهم على ما هم فيه
- (2) وبعضهم يرى أن السبب هو إقدام جعفر البرمكي على الزواج سرا بأخت الرشيد: (العباسة/ ميمونة).
- (3) وبعضهم ذهب إلى أن الرشيد خاف من تصاعد نفوذ الفرس بعد أن كان العرب قد أخملوهم.
- أما السبب المباشر لنكبة البرامكة فهو أن جعفرا البرمكي كان قد أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوي النائر دون علم الرشيد، لذلك عمد الرشيد إلى صلبه على أحد أبواب بغداد كي يكون عبرة، ولم يكتف بالانتقام من جعفر حتى أمر باعتقال أبيه (يحيى) وأخويه ( الفضل + موسى )، أما أخوه الثالث (محمد) فقد ظل حرا طليقا لعدم ثبوت تهمة عليه.

#### ب - قضية الخلافة:

كان الرشيد يخشى أن يثور خلاف - بعد وفاته - على الخلافة بين أبنائه، لذلك كتب وصية جاء فيها أن الخلافة من بعده لابنه الأمين ثم لابنه المأمون، ثم لابنه المؤمن، وكتب بذلك عهدا أشهد عليه كبار بني هاشم والقضاة والفقهاء، وأودعه الكعبة، وفي نهاية عهده عندما مرض ب ( طوس ) جمع أقرباءه وأهله، وأوصاهم باجتماع الكلمة، وقال لهم: " انظروا محمدا الأمين و عبد الله المأمون، فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه، وقبحوا له بغيه ونكته".

#### ج - أخلاقيات الرشيد:

هنالك تناقض شديد في الأخبار المتعلقة بالرشيد، ففي كتب من طراز " البداية والنهاية " لابن كثير أو "مروج الذهب" للمسعودي أو "العقد الفريد " لابن عبد ربه أو " تاريخ الخلفاء " للسيوطي نجد صورة رائعة للرشيد، فهو رصين تقي ورع.. على حين نجد في كتب من طراز " الأغاني " للأصفهاني أو كتاب " ألف ليلة وليلة " صورة مختلفة كل الاختلاف فالرشيد يبدو زير نساء مدمن خمر... وقد شعر ابن خلدون بمثل هذا التناقض، فقال:

" و من الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاة وأنه لكفه بمكانهما من معارفته إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح (دون الخلوة) حرصا على اجتماعهما في مجلسه، وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعا، زعموا في حالة سكر، فحملت.. وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها ابنة خليفة، أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية " [ المقدمة 119 ]

حتى إن ابن خلدون يرفض فكرة أن الرشيد كان يشرب الخمرة المصنوعة من العنب :  
 " كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى  
 اتهامه بها، فلم يكن الرجل يواقع محرماً ولا كان من أهل الكبائر عند أهل الملة " [ المقدمة 235 ]  
 ونحن نرى - مع ابن خلدون - أن رجلاً يحج عاماً ويغزو عاماً، ويحدث عن رسول الله (ص) ويتصدق كل يوم  
 بألف درهم من حر ماله، ويصلي كل يوم مئة ركعة، ويجالس الزهاد من طراز الفضيل بن عياض، ويبيكي إذا سمع  
 المواعظ، ويحفر قبره قبل الموت.. لا يعقل أن يكون إلا مثلاً في الأخلاق والشرف، وصدق من قال فيه:  
 فمن يطلب لقاءك أو يردده فبالحرمين أو أقصى الثغور  
 ففي أرض العدو على طمرٍ وفي زمن الترفه فوق كور

### نصوص تتعلق بالرشيد

- زبيدة تعاتب زوجها الرشيد على سماحه لجعفر البرمكي بالاجتماع بالعباسة:  
 " دخل الرشيد على زبيدة، فقال : أرايت ما عاملني به جعفر وما ارتكبه من هتك ستري  
 وتتكيس رأسي، وفضحي بين العرب والعجم ؟ فقالت له معاتبة: هذه شهوتك وإرادتك، عمدت إلى  
 شاب جميل الوجه، حسن الثياب، طيب الرائحة جبار في نفسه... أدخلته على ابنة خليفة من خلفاء  
 الله، وهي أحسن منه وجهاً وأنظف منه ثوباً، وأطيب منه رائحة، لكنها لم تر رجلاً قط غيره؟!.. فهذا  
 جزء من جمع بين النار والحطب ".  
 رسالة يحيى البرمكي من السجن إلى الرشيد:
- " بسم الله الرحمن الرحيم.. إلى أمير المؤمنين ونسل المهديين وإمام المسلمين وخليفة  
 رسول الله، من عبد أسلمته دنوبه، وأثقلته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، وخانه الزمان،  
 وأناخ عليه الخذلان، ونزل به الحدثنان، فصار إلى الضيق بعد السعة، وعالج الموت بعد الدعة،  
 وشرب كأس الموت مترعة، وافترش السخط بعد الرضا، واكتحل السهد بعد الكرى، فنهاره فكر،  
 ونومه سهر، وساعته شهر، وليلته دهر، وقد عاين الموت مراراً، وشارف الهلاك جهاراً.....  
 فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتي، وارحم ضعفي ووهن قوتي، وهب لي رضاك، فمن مثلي  
 الزلل، ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر، ولكنني أقر، وقد رجوت أن أفوز برضاك ؛ فتقبل عذري  
 وصدق نيتي وظاهر طاعتي

قل للخليفة ذي الصنا	نع والعطايا الفاشية
وابن الخلائف من قريـ	ش والملوك العالـية
إن البرامكة الذيـ	ن رموا لـديك بـداهيـة
عمتهم لك سـخطة	لم تـبـق منهم باقـية
فكانهم ممـا بهمـ	أعـجاز نـخل خـاويـة
صفر الوجوه عـلـيهم	خلع المذآلة بادـية
بعد الإمارة والوزا	رة والأمور السـامية
أضحوا وجلّ مناهم	منك الرضا والعافـية
يا من يريد لي الردى	يكفيك، ويحك، ما بيـه
يكفيك أني مسـتـبا	ح عـترتي ونـسائيـه
يكفيك ما أبصرته	ذلـي و ذل مكائـيه
فلقد رأيت الموت من	قبل الممات علانيـه
من لي وقد غلب الزما	ن على جميع رجالـيه
يا عطفة الملك الرضا	عوذي علينا ثانيـه

فلما وقف الرشيد على الرقعة ، كتب على ظهرها هذه الأبيات:

يا آل برمك إنكم  
فبغيتم وطغيتم  
هذي عقوبة من عصي  
كنتم ملوكا عاتيه  
وكفرتم نعمائيه  
من فوقه و عسانيه

ثم أردف الأبيات بقوله:

" بسم الله الرحمن الرحيم:  
(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)

#### أقوال في الرشيد

- كان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم [ البداية والنهاية - ابن كثير 214/9 ]
- كان يصلي في كل يوم مئة ركعة تطوعا إلى أن فارق الدنيا [ البداية والنهاية 214/9 ]
- إذا سمع موعظة بكى حتى يبيل الثرى [ البداية والنهاية 215/9 ]
- روى الحديث عن أبيه وجده " اتقوا النار ولوبشق تمرة " [ البداية والنهاية 213/9 ]
- كان يحج سنة ويغزو سنة، يحج ماشيا من شدة تقاه [ السيوطي - تاريخ الخلفاء 286 ]
- إذا حج أحج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم [ البداية والنهاية 214 /9 ]
- قال الفضيل بن عياض " ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد وإنني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري" [ البداية والنهاية 221/9 ]
- كان في دار الرشيد من الجوارى والحظايا.. أربعة آلاف [ البداية والنهاية 220/9 ]
- قال الرشيد لأبي العتاهية عطني بأبيات من الشعر وأجزء، فقال :

ولو تمنعت بالحجاب والحرس

واعلم بأن سهام الموت صائبة

لكل مدّرع منا ومثّرس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تمشي على اليابس

- فخر الرشيد مغشيا عليه.

- كان الرشيد قد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها، فلما دنت وفاته حمل على محفة
- إلى القبر، فرأى التراب ثم قال: إلى هذا تصير يابن آدم [ البداية والنهاية 213/9 ]
- كنت يوما عند الرشيد، فدعا طباخه فقال: أعندك في الطعام لحم جزور (جمل)؟ قال نعم [البداية والنهاية 316/9 ] هلكت والله يا هارون ولم يزل يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلاة الظهر .